الفصل الثالث

عبدالله بن عباس

رضي الله عنه

عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما)

نسبه ونشأته:

هو حبر[١] الأمة ، وفقيه العصر ، وإمام التفسير ، أبو العباس عبدالله ، ابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- العباس بن عبد المطلب شيبة بن هاشم ، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر القرشي الهاشمي المكي الأمير رضي الله عنه[٢] .

هذا الصحابي الجليل ملك المجد من جميع أطرافه فما فاته منه شيء ، فقد اجتمع له مجد الصُحبة ، ولو تأخر ميلاده قليلاً لما شرُف بصُحبة رسول الله ، ومجد القرابة ، فهو ابن عم رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ، ومجد العلم ، فهو حبرُ أمة محمد وبحر علمها الزاخر ومجد التُقى ، فقد كان صواماً بالنهار قواماً بالليل ، مستغفراً بالأسحار ، بكاءً من خشية الله حتى خدد الدمع خديه[٣] .

روى الواقدي أن ابن عباس ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وكان ابن ثلاث عشرة سنة إذ توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام[٤] .

وأكّد ذلك ما جاء في المستدرك للحاكم في ترجمة عبدالله بن عباس أنه توفي سنة ثمان وستين وكان عمره خمسة عشر عاماً عند وفاة النبي عليه الصلاة والسلام[٥] .

---

(١) الحبر : العالم الصالح .
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٢ .
(٣) صور من حياة الصحابة ٣/ ٤٢ .
(٤) الاستيعاب ٣/ ٩٣٣ .
(٥) كنز العمال ١١/ ٧٣١ .

صفاته:

كان وسيماً ، جميلاً ، مديد القامة ، مهيباً ، كامل العقل ، ذكي النفس ، من رجال الكمال [١] .

قال عبدالله بن منده يصف ابن عباس :

أمه هي أم الفضل أخت أم المؤمنين ميمونة ، ولد قبل الهجرة بسنتين ، وكان أبيض، طويلاً ، مُشْرباً صُفرة ، جسيماً ، وسيماً ، صبيح الوجه ، له وفرة، يخضب بالحناء ، دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالحكمة، وهو ابن خالة خالد بن الوليد المخزومي[٢] .

روى سعيد بن سالم قال حدثنا ابنُ جريج قال : كنا جلوساً مع عطاء في المسجد الحرام ، فتذكرنا ابن عباس فقال عطاء : ما رأيت القمر ليلة أربع عشرة إلا ذكرت وجه ابن عباس [٣] .

وروى إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، قال: كان ابن عباس إذا مر في الطريق ، قلن النساء على الحيطان أمر المسك أم مر ابن عباس؟[٤] .

وكان يصغر[٥] لحيته وقيل كان يخضبها بالحناء [٦] .

وهكذا يتبين لنا أن ابن عباس ممن يشار إليه بالبنان سواء في صفاته الخُلقية أو الصفات الخلقية التي يدخل فيها جانب الوراثة، فهو من قريش تلك القبيلة التي عرفت بالقيادة والمجد والسلطة، وهو ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٣ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٦ وأسد الغابة ٣/ ١٩٣ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٦ .
(٤) عبدالله بن عباس ، ص ٣١ .
(٥) كذا في أُسد الغابة، ولعل الصواب (يصفِّر) بالفاء.
(٦) أسد الغابة ٣/ ١٩٥ .

كما أنه ابن خالة خالد بن الوليد الذي قلما عرفت الإنسانية مثل تفوقه العسكري.

كما أنه -رضي اللّه عنه- كان ممن يتسم بالموازنة بين حاجات الدنيا ومتطلبات الآخرة ، فقد أقبل على العلم وعلى العبادة لكنه لم ينس نصيبه من الدنيا، فنجده يتجمل ويختار أفضل الطيب حتى عرفت النساء داخل البيوت بمروره، وروى جويبر عن الضحاك، قال: ما رأيت بيتاً أكثر خبزاً ولحماً من بيت ابن عباس[١].

وروى ابن جريج عن عثمان بن أبي سليمان أن ابن عباس كان يتخذ الرداء بألف[٢].

عن عبداللّه بن عبد الرحمن عن أبي حسين قال : ما رأيت بيتاً كان أكثر طعاماً ولا شراباً ولا فاكهة ولا علماً من بيت عبداللّه بن عباس[٣].

وهكذا يجب على المسلم أن يوازن بين متطلبات الدنيا ومتطلبات الآخرة ، وأن يربي أولاده وتلاميذه على الاعتدال والموازنة .

طلبه للعلم:

انتقل ابن عباس مع أبويه إلى دار الهجرة سنة الفتح ، وقد أسلم قبل ذلك، وقد صح عنه أنه قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين ، أنا من الولدان ، وأمي من النساء[٤].

وعندما بلغ سن التمييز لازم الرسول عليه الصلاة والسلام ملازمة العين لأختها . وكان عمره حين ذاك ما يقارب الحادية عشرة، فكان يُعد له ماء وضوئه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥١ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٥ ، الحلية ١/ ٣٢١ .
(٣) الحلية ١/ ٣٢١ .
(٤) أخرجه البخاري ٨/ ١٩٢ في (سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٤) .

إذا هَمّ أن يتوضأ ، ويصلي خلفه إذا وقف للصلاة ، وقد صاحب النبي عليه الصلاة والسلام ما يقارب ثلاثين شهراً حتى توفي عليه الصلاة والسلام .

كان ابن عباس يبيت عند خالته ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويصادف أن يكون الرسول عندها في ليلتها ، فينام هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت واحد . فلا غرابة في أن ينقل لنا شيئاً من حياة رسول الله الخاصة .

فعن ابن عباس قال : بت في بيت خالتي ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عندها في ليلتها ، فصلى العشاء ثم جاء إلى منزله فصلى أربع ركعات ، ثم نام ثم قام ثم قال : نام الغليم أو كلمة تشبهها ، ثم قام فقمت عن يساره ، فجعلني عن يمينه فصلى خمس ركعات ، ثم صلى ركعتين ، ثم نام حتى سمعت غطيطه أو خطيطه . ثم خرج إلى الصلاة (١) .

ويتبين لنا من الحديث السابق أهمية تكوين العلاقة الإيجابية بين المعلم والتلميذ . كما يتبين لنا أهمية القدوة الحسنة المؤثرة في الطفل ، فالأطفال يتأثرون بمراقبتهم لسلوك الكبار .

وقد بلغت شدة ملازمته للنبي -عليه الصلاة والسلام- أن يصاحبه في تنقلاته فكان يركب مع النبي عليه الصلاة والسلام على راحلته .

وأخرج أحمد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه- وسلم أردفه على دابته ، فلما استوى عليها كبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وحمد الله ثلاثاً وسبّح الله ثلاثاً وهلّل الله واحدة ثم استلقى عليه فضحك ، ثم أقبل عليّ فقال : **"ما من امرئ يركب دابته فيصنع كما صنعت إلا أقبل الله تبارك وتعالى فضحك إليه كما ضحكت إليك"** (٢) .

---

(١) صحيح البخاري : ١/ ٣٧ في (عبدالله بن عباس ، ص ٤١) .

(٢) حياة الصحابة ٤/ ٦٠ في (عبدالله بن عباس ، ص ٤٦)، مسند الإمام أحمد (١/ ٣٣٠) .

روى قيس الصفائي عن ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال : "يا غلام أني أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت، الأقلام وجفت الصحف" (١) .

وهكذا نرى اختيار النبي -عليه الصلاة والسلام- للوقت المناسب الذي يوجه فيه الأطفال . ففي الحديثين السابقين يتبين أن النبي قد وجه ابن عباس في الهواء الطلق وليس في غرفة مغلقة الأبواب إنما أخذه في رحلة ونزهة ليكون الطفل في أتم استعداد للتلقي . وهكذا نخرج بأهمية اختيار الزمان والمكان المناسبين للتوجيه والتعليم .

فضله:

روى خالد الحذاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : مسح النبي صلى الله عليه وسلم رأسي ، ودعا لي بالحكمة (٢) .

وروى الزبير : حدثني ساعدةُ بن عُبيد الله المزني ، عن داود بن عطاء ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر ، أن عُمر دعا ابن عباس ، فقرّبه . وكان يقول : إني رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعاك يوماً ، فمسح رأسك ، وتفل في فيك ، وقال :

" اللهم فقّهْهُ في الدين وعلمه التأويل " (٣) .

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح .
(٢) أخرجه البخاري ١/ ١٥٥ في (سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٤)، سند أحمد (١/ ٣٣٠).
(٣) أخرجه البلا ذري في أنساب الأشراف ٣/ ٣٧ في (سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٧) .

عن ابن عباس :

« دعا لي رسول الله بالحكمة مرتين » (١) .

روى عبد المؤمن بن خالد : عن ابن بريده ، عن ابن عباس : انتهيت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده جبريل ، فقال له جبريل :

« إنه كائن هذا حبر الأمة فاستوص به خيراً » (٢) .

عن ابن عمر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لابن عباس :

« اللهم بارك فيه وانشر منه » (٣) .

وقال مجاهد عن ابن عباس :

رأيت جبريل عند النبي -صلى الله عليه وسلم- مرتين ، ودعا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحكمة مرتين (٤) .

ومما سبق نرى مشروعية الدعاء للصغير بالبركة ، ثم إن هذا الدعاء له أثر في انشراح نفسية الطفل وتقبله للحياة بروح سعيدة متفائلة بالخير وزيادة دافعيته للتعلم وتشجيعه على بذل الجهد أضعافاً مضاعفة .

وتزيد أهمية الدعاء إذا كان من الوالدين ؛ لأن الدعاء يقوي العاطفة ويزيدها متانة ويزيد قلبي الوالدين رحمة وشفقة . كما أن الدعاء يجلب البركة والخير ، كما رأينا من دعاء النبي -عليه الصلاة والسلام- لابن عباس حتى أصبح حبر الأمة وترجمان القرآن .

---

(١) أسد الغابة ٣/ ١٩٣ .

(٢) الحلية ١/ ٣١٦ في (سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٣) رجاله رجال الصحيح .

(٣) كنز العمال ١١/ ٧٣١ .

(٤) الاستيعاب ٣/ ٩٣٥ .

كما نهى النبي -عليه الصلاة والسلام- من الدعاء على الأبناء ، فقد روى أبوداود عن رسول اللّه -عليه الصلاة والسلام- قال :

"لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم .. ولا تدعوا على خدمكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من اللّه ساعة فينزل فيها إعطاء فيستجاب لكم" (١) .

شهادة الصحابة بتفوقه:

وكان ابن عباس -رضي اللّه عنه- من أعلم الصحابة في تفسير القرآن(٢) .

عن ابن مسعود قال : لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجل وكان يقول : «نعم ترجمان القرآن ابن عباس» .

روى أبو زرعة الدمشقي في تاريخه عن ابن عمر ، قال : «هو أعلم الناس بما أنزل اللّه على محمد» .

عن مسروق قال : «كنت إذا رأيت ابن عباس ، قلتُ: أجمل الناس ، فإذا نطق ، قلت : أفصح الناس . فإذا تحدث ، قلت: أعلم الناس» .

وفي هذه الشهادة نرى أن ابن عباس قد حاز أغلب مجالات خصائص التفوق من ناحية الجمال والحسن ، ومن ناحية الطلاقة اللغوية والفصاحة في عصر تميَّز بالفصاحة . كما تعددت أوجه تفوقه في أغلب مجالات الحياة .

وقال أبو عمرو بن العلاء : نظر الحطيئة إلى ابن عباس في مجلس عمر بن الخطاب -رضي اللّه عنه- غالباً عليه فقال : من هذا الذي برع الناس بعلمه، ونزل عنهم بسنه ، قالوا : عبداللّه بن عباس ، فقال فيه أبياتاً منها :

---

(١) منهج التربية النبوية ، ص ٣٢٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٧ .

إني وجـــدت بيان المرء نافلة تهدى له ووجدت العي كالصمم

والمرء يفنى ويبقى سائر الكلم وقد يلام الفتى يومـــاً ولـم يلـم[١]

قال عبيد الله بن عبدالله بن عتبة : «كان ابن عباس قد فات الناس بخصال؛ بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب وتأويل، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منه ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا تفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب ، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً» [٢] .

روى ابن جريج ، عن طاووس قال : «ما رأيتُ أورعَ من ابن عمر ، ولا أعلم من ابن عباس» [٣] .

عن سعيد بن جبير قال : « كان ابن عباس يحدثني بالحديث فلو يأذن لي أن أقبل رأسه لقبلت» [٤] .

روى الأعمش ، عن مجاهد ، قال : « كان ابن عباس يسمى الحبر لكثرة علمه»[٥] .

ومما قال حسان رضي الله عنه :

---

(١) الاستيعاب ٣/ ٩٣٦ .
(٢) أسد الغابة ٣/ ١٩٣ .
(٣) تاريخ الفسوي ١ / ٤٩٦، (في سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٠).
(٤) فضائل الصحابة ٩٥١ .
(٥) الحلية ١ / ٣١٦ .

إذا مـا ابنُ عـبـاس بدا لك وجـهـه

رأيتَ له في كل أقـوالـه فـضـلا

إذا قـال لـم يتـرك مـقـالةً لقـائل

بمنتظمـات لا ترى بينهـا فـصـلا

كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع

لذي أرب في القـول جداً ولا هزلا

سـمـوتَ إلى العليـا بغـيـر مشـقـةٍ

فنلتَ ذُراها لا دنيـا ولا وغـلا

خُلِقتَ حليـفـاً للمـروءة والندى

بليجاً، ولم تُخلق كهاماً ولا خبلا[1]

لقد عمدت إلى ذكر شهادات الصحابة والتابعين بتفوق ابن عباس لنقف على عدة أمور من أهمها :

١ ـ أن أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام- قد عرفوا التفوق بمختلف مظاهره في ذلك الوقت وأدركوا أهمية المتفوقين ودورهم في المجتمع .

٢ ـ تعددت الشهادات في أكثر من مظهر مما يعني أن الصحابة قد عرفوا للتفوق عدة مظاهر منها : العلم، الفصاحة في اللغة ، رجاحة الرأي، الحلم ، القضاء ، الفقه ، الحساب ، التاريخ ، تفسير القرآن .

٣ ـ تشجيع الكبار ومدحهم للمتفوقين يزيد من دافعيتهم، مثال ذلك ما قاله ابن مسعود : «نعم ترجمان القرآن ابن عباس» .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٤ .

٤ ـ إن تعدد الشهادات التي تثبت تفوق ابن عباس يُزيد التأكيد على تفوقه ونبوغه في مجتمعه، وتجدر الإشارة إلى أن ما ذكرته في هذا البحث من شهادات الصحابة تعتبر غيضاً من فيض .

دور الأسرة في توجيه ابن عباس:

لقد كان لأسرة ابن عباس دور مهم في تربيته وتنشئته التنشئة السليمة . فقد سلمه والده منذ صغره للنبي -عليه أفضل الصلاة والسلام- وجعله يرافقه وينهل من علمه ويتحلى بأخلاقه . وقد وردت أحاديث كثيرة تبين أنه كان ينام في بيت النبي عليه الصلاة والسلام . أضف إلى ذلك أنه ابن عم رسول اللّه عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقد ثبت أن النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يداعبه ويردفه معه على راحلته ويستقبله إذا رجع من الغزو ويصطحبه معه إلى صلاة العيد رغم صغر سنه، كما أن ابن عباس قد رأى جبريل في مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام[1] .

وقد كان لمصاحبته النبي -عليه الصلاة والسلام- أعظم الأثر في تربيته وتوجيهه منذ نعومة أظفاره .

ولم يغفل العباس -رضي اللّه عنه- عن توجيه ابنه مع ما أنعم اللّه عليه من علم وذكاء، فعندما رأى أن عمر بن الخطاب يدنيه ويقربه مع كبار الصحابة خاف أن تزل قدمه عند عمر فأخذ يوصيه ويوجهه .

عن مجالد حدثني عامر الشعبي عن ابن عباس قال لي أبي : أي بني إني أرى أمير المؤمنين يدعوك ويقربك ويستشيرك مع أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فاحفظ عني ثلاث خصال ، اتق اللّه ولا يجرّبن عليك كذبه

(١) عبداللّه بن عباس ، ص ٤٣ ـ ٤٨ .

ولا تفشي له سراً ، ولا تغتابن عنده أحداً ، قال عامر : فقلت لابن عباس : كل واحدة خير من ألف : قال كل واحدة خير من عشرة آلاف [١] .

ولنا في سيرة الصحابة وطريقة تنشئتهم لأبنائهم دروس عديدة لعل من أهمها :

١ ـ أهمية رعاية وتنشئة الأطفال منذ الصغر وقديماً قالوا : العلم في الصغر كالنقش على الحجر .

٢ ـ مشروعية اصطحاب المعلم تلميذه أو قريبه الذي يتعلم على يديه إلى بيته .

٣ ـ إن التربية ليست نقل معلومات فقط ، وإلا لرأينا النبي -عليه الصلاة والسلام- يعطي ابن عباس ما يشاء من المعلومات ولا يكلفه أن يصاحبه ويبيت عنده في بيته ، وهنا يتبين أن التربية قد عرفت في ذلك العصر بمفهومها الحديث وهو تعديل سلوك المتعلم .

٤ ـ مراعاة نفسية الطفل وإدخال السرور إليه بمداعبته واصطحابه واستقباله بعد الرجوع من السفر . ومما يساعد في إدخال السرور إلى نفسية الطفل شراء الألعاب التي يجب أن تكون مما يتحدى قدرات الطفل العقلية وأن تكون مما يحتاج إلى تفكيك وتركيب والتي تستدعي عند الطفل حب الاستكشاف .

٥ ـ من أهم الأمور التربوية أن نغرس في نفسية الطفل حب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن يتخذ النبي عليه الصلاة والسلام قدوة له . مما يجعل الطفل يفتخر بانتمائه لخير البشرية جمعاء .

٦ ـ إن دور الأسرة لا ينتهي بوصول الطفل إلى سن الرشد مثلاً والاعتماد

---

(١) الحلية ١/ ٣١٨ ، فضائل الصحابة ، ص٩٥٧ .

على نفسه ، بل إن دور الأسرة يبقى دوراً توجيهياً مثلما فعل العباس رضي اللّه عنه عندما وجه ابنه عبداللّه وأخبره كيف يتعامل مع الخليفة .

أبرز خصائص التفوق لديه :

لقد تميّز عبداللّه بن عباس بكثير من الصفات التي تدل على تفوقه وحرصه على طلب العلم ، ولعل من أبرزها :

١ ـ الالتزام بالمهمة والإصرار على طلب العلم :

يقول ابن عباس : كان إذا بلغني الحديث عند رجل من صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أتيت باب بيته في وقت قيلولته وتوسدت ردائي عند عتبة داره ، فيسفي علي الريح من التراب ما يسفي ، ولو شئت أن أستأذن عليه لأذن لي . وإنما كنت أفعل ذلك لأطيب نفسه فإذا خرج من بيته رآني على هذه الحالة ، وقال يابن عم رسول اللّه ، ما جاء بك ؟! هلا أرسلت إليَّ فأتيك (١) ؟ .

٢ ـ الدافعية للمستقبل واستغلال المواقف :

روى جرير عن حازم عن يعلى بن حكيم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما توفي رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم-، قلت لرجل من الأنصار : هلمَّ نسأل أصحاب رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم-، فإنهم اليوم كثير ، فقال : واعجباً لك يابن عباس أترى الناس يحتاجون إليك ، وفي الناس من أصحاب النبي -عليه السلام- من ترى ؟ فترك (٢) ذلك . وأقبلت على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل ، فآتيه وهو قائل ، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفي الريح عليَّ التراب ، فيخرجُ ، فيراني ، فيقول : يابن عم رسول اللّه ! ألا

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٣ .
(٢) المرجع السابق .

أرسلت إليَّ فآتيك ؟ فأقول : أنا أحق أن آتيك ، فأسألك . قال : فبقي الرجلُ حتى رآني وقد اجتمع الناس عليَّ ، فقال : هذا الفتى أعقلُ مني [١] .

٣ ـ الحرص على الإتقان مع سرعة الإنجاز :

قال هشيم : أخبرنا أبو بشر عن سعيد عن ابن عباس قال : جمعت المحكم في عهد رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- وأنا ابن عشر [٢] .

روى عبدالملك بن أبي سليمان ، عن سعيد بن جبير ، قال : كان ناس من المهاجرين قد وجدوا على عمر في إدنائه ابن عباس دونهم . فقال عمر : أما إني سأريكم اليوم منه ما تعرفون فضله ، فسألهم عن هذه السورة : ﴿ **إذا جاء نصر اللّه** ﴾ . فقال بعضهم : أمر اللّه نبيه إذا رأى الناس يدخلون في الدين أفواجاً أن يحمده ويستغفره . فقال عُمر : يا ابن عباس ، تكلم . فقال : أعلمهُ متى يموت ، أي : فهي آيتك من الموت ، فسبح بحمد ربِّك واستغفره [٣] .

عن يحيى بن يمان : عن عبد الملك بن أبي سليمان ، عن سعيد بن جبير قال : قال عُمر لابن عباس : «لقد علمت علماً ما علمناه» [٤] .

ومن شدة حرصه على الدقة في صحة ما يتعلم ما نُقل عنه ، فقد روى يزيد ابن إبراهيم عن سليمان الأحول ، عن طاووس عن ابن عباس ، قال : إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم [٥] .

ومع شدة حرصه في السؤال لكل ما يتعلمه فقد أتقن علوماً شتى كان

---

(١) إسناده صحيح ، (في سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٣ ، فضائل الصحابة ، ص ٩٧٧ .

(٢) إسناده صحيح أخرجه أحمد ١/ ٢٥٣ في (سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٥) ، معرفة القراء الكبار ، ص ٤١ .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب في (سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٣) ، الحلية ١/ ٣١٧ .

(٤) أخرجه البلاذري ٣/ ٣٧ في سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٥ .

(٥) إسناده صحيح (في سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٤) .

مصدرها التحصيل المتقن والبناء السليم والمعلومات الصحيحة حتى أقبل عليه الناس وأصبح بمثابة جامعة شاملة للعلوم والمعارف .

عن عطاء قال : كان ناس يأتون ابن عباس في الشعر والأنساب وناس يأتون لأيام الحرب ووقائعها ، وناس يأتون للعلم والفقه ، ما منهم صنف إلا يُقبل عليهم بما شاؤوا (١) .

وذكر عبيدالله بن عبدالله عن ابن عباس :

« . . . لقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه ويوماً التأويل ويوماً المغازي ويوماً الشعر ويوماً أيام العرب ولا رأيت عالماً قط يجلس إليه إلا خضع له وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علما» (٢) .

٤ ـ العمر العقلي أكبر من العمر الزمني :

وكما رأينا في الحديث السابق كيف استطاع ابن عباس أن يفهم ويفسر ﴿ **سورة النصر** ﴾ مع حداثة سنه في حين لم يتوصل كبار الصحابة إلى عمق فهمها وسر مغزاها . مما جعل عمر بن الخطاب يدنيه ويقربه مع كبار الصحابة .

وقد أصبح ابن عباس مستشاراً للخلافة الراشدة رغم حداثة سنه فكان إذا عرض لعمر بن الخطاب أمر أو واجهته معضلة دعا شيوخ الصحابة ودعا معهم عبدالله بن عباس ، فإذا حضر رفع منزلته وأدنى مجلسه وقال له :

« لقد أعضل علينا أمر أنت له ولأمثاله » .

وقد عوتب مرة في تقديمه له وجعله مع الشيوخ ، وهو ما زال فتىً ، فقال : «إنه فتى الكهول ، له لسان سؤول وقلب عقول»(٣) .

---

(١) الاستيعاب ٣/ ٩٣٩ .

(٢) أسد الغابة ٣/ ١٩٣ .

(٣) صور من حياة الصحابة ٣/ ٥٩ .

كما روى الأعمش، عن مسلم بن صبيح عن مسروق ، عن عبدالله بن مسعود ، قال : «لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشرهُ منا أحد» (١) .

وروى الأعمش ،عن إبراهيم ، قال : قال عبدالله : « لو أن هذا الغلام أدرك ما أدركنا ما تعلقنا معه بشيء » .

روى عاصم بن كليب ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : دعاني عمر مع الأكابر، ويقول لي : لا تتكلم حتى يتكلموا ، ثم يسألني ، ثم يقبل عليهم، فيقول: ما منعكم أن تأتوني بمثل ما يأتيني به هذا الغلام الذي لم تستو شؤون رأسه(٢) .

٥ ــ قوة الذاكرة:

قال المبرد: ويروى أن ابن الأزرق أتى ابن عباس فجعل يسأله حتى أمله ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر ، وطلع عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة على ابن عباس وهو يومئذ غلام ، فسلم وجلس ، فقال له ابن عباس : ألا تنشدنا شيئاً من شعرك ؟ فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر

غداة غدٍ أم رائح فمهجر

حتى أتمها وهي ثمانون بيتاً ، فقال له ابن الأزرق : لله أنت يا ابن عباس، أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين، فتعرض؟ ! ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه ؟! فقال: تا لله ما سمعت سفهاً ، فقال ابن الأزرق: أما أنشدك:

---

(١) صفة الصفوة ص ٣٨٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٥ ، صفة الصفوة ، ص ٣٨٠ ، فضائل الصحابة ، ص٩٧٠ .

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيخـزى وأما بالعشـي فيخسـر

فقال: ما هكذا، قال : إنما قال : فيضحى ، وأما بالعشي فيخصر . قال : أو تحفظ الذي قال ؟ قال : واللّه ما سمعتها إلا ساعتي هذه ، ولو شئت أن أردها لرددتها . قال: فارددها، فأنشده إياها (١) .

روى الواقدي ، حدثنا أبو بكر بن أبي سرة ، عن موسى بن سعد ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص : سمعت أبي يقول : ما رأيت أحداً أحضر فهماً ، ولا ألب لباً ، ولا أكثر علماً ، ولا أوسع حلماً من ابن عباس ، لقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات فيقول : قد جاءت معضلة ، ثم لا يجاوز قوله ، وإن حوله لأهل بدر (٢) .

٦ ـ قيادته لمعظم الوقائع التي يشارك فيها:

- تقديم عمر بن الخطاب لابن عباس على كثير من كبار الصحابة .
- تقديم عمر بن الخطاب لرأي ابن عباس على آراء كبار الصحابة في كثير من المواقف ، مما يدل على اتجاه الأنظار إليه في كل مجلس شورى.
- في الإصابة أن علياً ولى ابن عباس البصرة فلم يزل بها حتى قُتل علي . فاستخلف على البصرة عبداللّه بن الحارث ومضى إلى الحجاز ، ولقد كان ابن عباس في إمارته يسعى إلى تثقيف الناس وتعليمهم معاني القرآن وبخاصة في رمضان(٣).

---

(١) شرح الكامل ٧/ ١٦٥ - ١٦٦ في (ابن عباس ، ص ١٨٣) .
(٢) رجال حول الرسول ، ص ٧١٧ .
(٣) عبداللّه بن عباس ، ص ١٦٠ .

- وقد وصف صعصعة بن صوحان ابن عباس حين إمارته على البصرة عندما سأله علي بن أبي طالب فقال صعصعة : يا أمير المؤمنين ، إنه آخذ بثلاث وتارك لثلاث . آخذ بقلوب الرجال إذا حدث ، وبحسن الاستماع إذا حُدث ، وبأيسر الأجرين إذا خولف ، وتارك المراء ، ومقارنة اللئيم ، وما يعتذر منه(١) .

- وقد ثبت أنه تولى إمارة إحدى المواسم كما جاء في حديث أبي وايل قال : «خطبنا ابن عباس ، وهو أمير على الموسم . . . »(٢) .

- عن ابن إسحاق عن سيف قال : قالت عائشة من استعمل على الموسم ؟ قالوا : ابن عباس ، قالت : هو أعلم بالسنة (٣) .

يتبين من الأحاديث السابقة تولية ابن عباس للإمارة في أكثر من مرة ، حتى ظهرت قدرته في الإدارة .

وإن الناظر إلى تولية ابن عباس الإمارة يخرج بعدة نقاط أهمها :

- تفوق ابن عباس في القيادة مما جعله يتولى الإمارة أكثر من مرة .

- من وسائل تنمية قدرات ومواهب الفائقين إفساح المجال لهم في المجالات التي لم يظهر فيها تفوقهم بشكل واضح .

- مشروعية طلب المتفوق للقيادة لكي يستطيع أن يُصلح ويُوجه من كرسي الكلمة المسموعة ولعل خير دليل على ذلك ما فعله سيدنا يوسف عندما طلب أن يتولى القيادة :

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يوسف) .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٣٠٠ في (عبدالله بن عباس ، ص ١٦١) .

(٢) الاستيعاب ٣/ ٩٣٦ ، ويقصد أنه كان أميراً على قافلة الحج .

(٣) إسناده صحيح في فضائل الصحابة ، ص ٩٥٤ .

فمن واجب المتفوق أن يسعى للإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً، وهذا ما فعله ابن عباس في إمارته، حيث كان يسعى إلى تثقيف الناس وتعليمهم وبخاصة في شهر رمضان المبارك .

٧ ـ قوة تأثيره وإقناعه :

روى يعقوب بن سفيان بإسناد صحيح عن أبي وائل قال : قرأ ابن عباس سورة النور ، ثم جعل يفسرها ، فقال رجل :

«لو سمعت هذا الديلم لأسلمت» (١) .

وروى الأعمش قال : حدثنا أبو وائل قال : خطبنا ابن عباس ، وهو أمير على الموسم ، فافتتح سورة النور ، فجعل يقرأ ، ويفسر ، فجعلت أقول ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثل هذا ، لو سمعته فارس ، والروم والترك ، لأسلمت (٢) .

وعن طاووس قال : «أدركت نحواً من خمسمائة من الصحابة ، إذا ذاكروا ابن عباس ، فخالفوه ، فلم يزل يقررهم حتى ينتهوا إلى قوله» (٣) .

بعث به الإمام علي ـ كرم اللّه وجهه ـ ذات يوم إلى طائفة كبيرة من الخوارج فدار بينه وبينهم حوار رائع وجَّه فيه الحديث وساق الحجة بشكل يبهر الألباب .

ومن ذلك الحوار الطويل نكتفي بهذه الفقرة . .

سألهم ابن عباس :

[ماذا تنقمون من علي . . ؟؟]

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٣٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٥١ ، الاستيعاب ٣/ ٩٣٦ .
(٣) رجال حول الرسول، ص ٧٢٠ .

قالوا :

[ننقم منه ثلاثاً :

«أولاهن : أنه حكَّم الرجال في دين اللّه ، والله يقول : إن الحكم إلا للّه . .

والثانية : أنه قاتل ، ثم لم يأخذ من مقاتليه سبياً ولا غنائم ؛ فلئن كانوا كفاراً ، فقد حلَّت له أموالهم ، وإن كانوا مؤمنين ، فقد حرمت عليه دماؤهم . . !

والثالثة : رضي عند التحكيم أن يخلع عن نفسه صفة أمير المؤمنين ، استجابة لأعدائه ، فإن لم يكن أمير المؤمنين ، فهو أمير الكافرين . .] .

وأخذ ابن عباس يُفَنّد أهواءهم ، فقال :

[أما قولكم : إنه حكَّم الرجال في دين اللّه ، فأي بأس . . ؟

إن اللّه يقول :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ (المائدة) .

فنبئوني باللّه : أتحكيم الرجال في حقن دماء المسلمين أحق وأولى ، أم تحكيمهم في أرنب ثمنها ربع درهم ؟!

وتلعثم زعماؤهم تحت وطأة هذا المنطق الساخر والحاسم . . واستأنف حبر الأمة حديثه :

وأما قولكم : إنه قاتل فلم يسب ولم يغنم ، فهل كنتم تريدون أن يأخذ عائشة زوج الرسول وأم المؤمنين سبياً ، ويأخذ أسلابها غنائم . . ؟ ؟

وهنا كست وجوههم صفرة الخجل ، وأخذوا يوارون وجوههم بأيديهم . . وانتقل ابن عباس إلى الثالثة :

وأما قولكم : إنه رضي أن يخلع عن نفسه صفة أمير المؤمنين ، حتى يتم

التحكيم ، فاسمعوا ما فعله رسول اللّه يوم الحديبية ، إذ راح يُملي الكتاب الذي يقوم بينه وبين قريش ، فقال للكاتب : اكتب . هذا ما قاضى عليه محمد رسول اللّه . . فقال مبعوث قريش : واللّه لو كنا نعلم أنك رسول اللّه ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك .

فاكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبداللّه . . فقال لهم الرسول : واللّه إني لرسول اللّه وإن كذبتم . . ثم قال لكاتب الصحيفة : اكتب ما يشاؤون : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبداللّه] . !

واستمر الحوار بين ابن عباس والخوارج على هذا النسق الباهر المعجز . . وما كاد ينتهي النقاش حتى نهض منهم عشرون ألفاً ، معلنين اقتناعهم ، ومعلنين خروجهم من خُصومة الإمام علي . . ! ! (١)

يعجز القلم ويتوقف الفكر ليجسِّد لنا تلك المحنة التي حدثت في أواخر عهد الخليفة عثمان بن عفان وعهد علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهما وما حدث من ظهور فرقة الخوارج وانضمام ألوف من المسلمين إلى هذه الفرقة وتحاملهم على الخليفة علي بن أبي طالب .

وفي هذه المحنة وغيرها من المحن تحتاج الأمم إلى المتفوقين الأذكياء ليخرجوها مما هي فيه أو ليخففوا عنها وطأة كوارث الحياة . ورأينا كيف استطاع ابن عباس أن يحاور الخوارج ويفحمهم ويلزمهم الحجة ليرجع منهم عشرون ألفاً إلى الصف الإسلامي . . إنها رجاحة العقل وقوة الحجة وغزارة العلم ، وهذا النوع من المتفوقين لا نستطيع إيجاده ما بين عشية وضحاها . إنه نتيجة تربية ورعاية استمرت سنين طويلة ، ومن هنا ندرك أهمية رعاية المتفوقين منذ نعومة أظفارهم ، وتنمية مواهبهم ، فلا تنهض الأمم إلا على أكتاف أبنائها .

---

(١) رجال حول الرسول ، ص ٧٢٠ .

٨ ـ قوة إرادتـه وتحديه للعمى :

قال ابن عبد البر في ترجمة ابن عباس إنه قال عندما أصابه العمى :

إن يأخذ اللّه من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم كالسيف مأثور [١]

وعن عكرمة ، قال : كان ابن عباس في العلم بحراً ينشق له الأمر من الأمور ، **وقد قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : "اللهم ألهمه الحكمة وعلّمه التأويل"** فلما عمي ، أتاه الناس من أهل الطائف ومعهم علم من علمه ـ أو قال كتب من كتبه ـ فجعلوا يستقرئون ، وجعل يقدم ويؤخر ، فلما رأى ذلك ، قال إني قد تلهت [٢] من مصيبتي هذه ، فمن كان عنده علم من علمي ، فليقرأ علي ، فإن إقراري له كقراءتي عليه . قال : فقرؤوا عليه [٣] .

إن المتفوقين يحملون رسالة عظيمة أودعهم إياها معلم البشرية محمد بن عبداللّه -عليه أفضل الصلاة والسلام- عندما قال : **"العلماء ورثة الأنبياء"** .

فعلى العالم أن يسعى إلى تعليم الناس ما يعرفه من علم ومهارات وألا يستكين لما قد يصيبه من كوارث الحياة ، لأن المتفوق يمتلك الثقة العالية بقدراته التي تجعله يتخطى جميع العقبات ، وهذا ما فعله ابن عباس عندما تحدى العمى وأقنع نفسه أن العين ليست كل شيء فهناك اللسان والقلب والعقل والإرادة القوية ، وذلك كله بعد الالتجاء إلى اللّه وطلب التوفيق منه .

٩ ـ الذكاء والفطنة :

لقد كان -رضي اللّه عنه- يتمتع بذكاء وفطنة وسرعة بديهة برزت في كثير

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٧ .

(٢) تلهت : تحيرت ، والأصل ولهت .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٤ .

من مواقف حياته ، وتفوق بفراسته في بعض المواقف على كثير من الصحابة ولعل من بينهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي وافق رأيه القرآن في أكثر من موضع ، كما أعجب بذكائه الخليفة الرابع علي بن أبي طالب في بعض الحوادث التي خالفه فيها .

عن يزيد بن الأعصم عن ابن عباس قال : قدم على عمر رجل ، فجعل عمر يسأله عن الناس فقال : يا أمير المؤمنين ، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا ، فقلت : والله ما أحب أن يسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة ، قال فزبرني عمر ثم قال : مَهْ ، فانطلقت إلى منزلي مكتئباً حزيناً ، فقلت : قد نزلت من هذا بمنزلة ولا أراني إلا سقطت من نفسه ، فاضطجعت على فراشي حتى عادني نسوة أهلي وما بي وجع ، فبينما أنا على ذلك قيل لي : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت فإذا هو قائم على الباب ينتظرني ، فأخذ بيدي ثم خلا بي فقال : ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفاً ؟ قلت : يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فإني أستغفر الله وأتوب إليه ، وأنزل حيث أحببت ، قال : لتخبرني ، قلت : متى ما يسارعوا هذه المسارعة يحتقوا ، ومتى ما يحتقوا يختصموا ، ومتى ما اختصموا يختلفوا ، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا ، قال : لله أبوك لقد كنت أكتمها الناس حتى جئت بها [١] .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت قاعداً عند عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إذ جاءه كتاب أن أهل الكوفة قد قرأ منهم القرآن كذا وكذا ، فكبّر رحمه الله ، فقلت : اختلفوا ، فقال : أف ! وما يدريك؟ قال : فغضب فأتيت منزلي ، قال : فأرسل إليَّ بعد ذلك فاعتللت له .

فقال : عزمت عليك إلا جئت ، فأتيته فقال : كنت قلت شيئاً ، قلت : أستغفر الله ، لا أعود لشيء بعدها ، فقال : عزمت عليك إلاَّ أعدت علي الذي قلت ، قلت : قلت : كتب إليَّ أنه قد قرأ القرآن كذا وكذا ، فقلت : اختلفوا ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٨ .

قال : ومن أي شيء عرفت ؟ قلت : قرأت :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) ﴾ (البقرة)

فإذا فعلوا ذلك لم يصبر صاحب القرآن، ثم قرأت :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ(٢٠٧) ﴾ .

قال : صدقت والذي نفسي بيده (١) .

عن ابن علية قال : حدثنا أيوب ، عن عكرمة : أن علياً حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام ، فبلغ ذلك ابن عباس ، فقال : لم أكن لأحرقهم أنا بالنار ، إن رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- قال **"لا تعذبوا بعذاب اللّه"** وكنت قاتلهم لقوله صلى اللّه عليه وسلم : **"من بدّل دينه فاقتلوه"** فبلغ ذلك علياً ، فقال : ويح ابن أم الفضل ، إنه لغواص على الهنات (٢) .

ومما يبين حنكته السياسية ونظرته الثاقبة للأمور ما حدث بينه وبين الإمام علي عندما ولاه الشام فرفض ذلك في بادئ الأمر ، وأشار عليه أن يكتب إلى معاوية ، وكأن ابن عباس كان يتوقع ما حدث من فتنة لا يسعنا في هذا المجال إلا أن نقول كما قال العلماء : «إنها فتنة عصم اللّه منها دماءنا فلنعصم منها ألسنتنا» . وإنما أوردنا هذه الحادثة لنقف على ما كان يتمتع به ابن عباس من نظرة ثاقبة لعواقب الأمور .

---

(١) حياة الصحابة : ٣/ ٧٥٢-٧٥٣ . في (عبداللّه بن عباس ، ص ٦٠) والآيات من سورة البقرة (٢٠٦-٢٠٧) .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٦ .

عن عبيدالله بن عبدالله ، عن ابن عباس ، انه قال لعليّ لما قال : سر فقد وليتك الشام ، فقال : ما هذا برأيي ، ولكن اكتب إلى معاوية فمنِّه ، وعده ، قال : لا كان هذا أبداً (١) .

وجاء في سير أعلام النبلاء أن علياً لما بُويع قال لابن عباس : اذهب على إمرة الشام . فقال : كلا ، أقل ما يصنع بي معاوية إن لم يقتلني الحبس ، ولكن استعمله ، وبين يديك عزلُه بعد ، فلم يقبل منه (٢) .

عن سعيد بن جبير أن معاوية كتب إلى ابن عباس يسأله عن ثلاثة أشياء وقال : إن هرقل كتب إلى معاوية يسأله عنهن ، فقال معاوية فمن لهذا ؟ قيل : ابن عباس ، فكتب إلى ابن عباس يسأله عن المجرة ، وعن القوس ، وعن مكان من الأرض طلعت فيه الشمس لم تطلع قبل ذلك اليوم ولا بعده ، فقال ابن عباس : أما المجرة فباب السماء الذي تنشق منه ، وأما القوس فأمان لأهل الأرض من الغرق ، وأما المكان الذي طلعت فيه الشمس لم تطلع قبل ذلك اليوم ولا بعده فالمكان الذي انفرج من البحر لبني إسرائيل (٣) .

جوابه لملك الروم:

قال المبرد : حدثني بعض الهاشميين أن ملك الروم وجه إلى معاوية بقارورة ، فقال : ابعث إليّ فيها من كل شيء ، فبعث إلى ابن عباس ، فقال : لتملأ له ماء ، فلما ورد بها على ملك الروم قال : لله أبوه ما أدهاه ، فقيل لابن عباس : كيف اخترت ذلك ؟ فقال : لقول الله عز وجل :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٩ .

(٢) إسناده صحيح ، وأخرجه البخاري ٦/ ١٠٦ في الجهاد . وفيه «فبلغ ذلك علياً ، فقال : ويح ابن عباس» ، قال الخطابي : قوله : «ويح ابن عباس» : لفظة لفظ الدعاء عليه ، ومعناه المدح له ، والإعجاب بقوله ، وهذا كقول الرسول صلى الله عليه وسلم في أبي بصير : «ويل أمه مسعر حرب» ، ولفظ البلاذري ٣/ ٣٥ : «فبلغ ذلك علياً ، فقال : لله در ابن عباس» (في سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٦) .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٤٩ .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء: ٣٠) [١] .

١٠ ـ الرغبة للتفوق في عدة مجالات :

أ ـ الجهـــاد :

لم يمنعه طلب العلم وتدريسه من الجهاد والبحث عن الشهادة حيث إن الجهاد في عصره كان مظهراً من مظاهر التفوق وقد اشترك في عدة معارك منها فتح مصر الذي أبلى فيه بلاءً حسناً وقد كان حريصاً على أن يعفر وجهه بتراب الغزو في سبيل اللّه ، واشترك في فتح بلاد طبرستان بقيادة سعيد بن العاص ، وكان على ميسرة جند علي بن أبي طالب في صفين . وكان معاوية يقدره على رغم اختلافه في الرأي ، وقد أشركه في الجيش الذي أعده لفتح القسطنطينية عام ٤٨ هجري [٢] .

كما ذكرنا في الفصل الأول أن الجهاد مظهر من مظاهر التفوق في ذلك العصر فلا يمكن ألا يكون لابن عباس فيه باع رغم ما عرفنا من تفوقه في كثير من مجالات الحياة ، ويمكننا في هذا الموضع أن نستخلص فائدة وهي أن المتفوق في مجال ما عادة ما يظهر بعض العلامات التي تدل على إمكانية تفوقه في مجالات أخرى .

ب ـ العبـــادة :

ـ عن طاووس قال : ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لحرمات اللّه من ابن عباس [٣] .

---

(١) الحادثة في : سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٣ .
(٢) أعلام المسلمين ، ص ١٥٠ .
(٣) الحلية ٣/ ٣٢٩ ، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٢ .

- وروى أبو عامر الخزاز : عن ابن أبي مليكة : صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة ، فكان يصلي ركعتين ، فإذا نزل ، قام شطر الليل ، ورتل القرآن حرفاً حرفاً ، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب (١) .

- وعن معتمر بن سليمان : عن شعيب بن درهم عن أبي رجاء قال : «رأيت ابن عباس وأسفل من عينيه مثل الشراك البالي من البكاء»(٢) .

- وورد عن ابن عباس أنه كان يصوم الإثنين والخميس عملاً بحديث أبي هريرة عن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال : **«تعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»** (٣) .

من أعظم ما يحتاج الناس إليه صغاراً أو كباراً الاستقرار النفسي والأمن ، والشعور بالانتماء ، وذلك ما تحققه عبادة اللّه عز وجل ، فالإنسان إذا خاف من شيء ما فإنه يهرب منه ويحاول أن يتجنب مقابلته مما يسبب له القلق والتوتر النفسي ، أما الخائف من اللّه فإنه يلتجئ إلى اللّه ويطلب مغفرته وعونه على تكاليف الحياة ، فيستقر نفسياً وعصبياً وبخاصة إذا ما تذكر قول اللّه تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ (البقرة) .

ومن فوائد العبادة أنها ترقق القلب وتلزمه التواضع وتشعره بحاجات الآخرين مما يسهل على الإنسان التوافق الاجتماعي . ولعل هذا يقودنا إلى تفوق ابن عباس في الكرم ومساعدة المحتاج .

جـ ـ الكرم :

لقد تعددت أوجه التفوق لدى ابن عباس ، فكان مما برز فيه صفة الكرم

---

(١) الحلية ٣/ ٣٢٧ ، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٢ .
(٢) أسد الغابة ٣/ ١٩٤ ، فضائل الصحابة ، ص٩٧٥ .
(٣) أخرجه الترمذي ، في سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٢ .

حتى إن المتمعن في بعض مواقفه يجد أنه يعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

فقد روى إسحاق بن سليمان الرازي : سمعت أبا سنان ، عن حبيب ابن أبي ثابت : أن أبا أيوب الأنصاري أتى معاوية ، فشكا ديناً ، فلم ير منه ما يحب . فقدم البصرة ، فنزل على ابن عباس، ففرغ له بيته ، وقال : لأصنعن بك كما صنعت برسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- . ثم قال : كم دينك ؟ قال : عشرون ألفاً . فأعطاه أربعين ألفاً ، وعشرين مملوكاً ، وكل ما في البيت[١] .

عن عكرمة عن ابن عباس قال : لأن أعول أهل بيت من المسلمين شهراً أو جمعة أو ما شاء اللّه ، أحب لي من حجة بعد حجة ، ولطبق بدانق أهديه إلى أخ لي في اللّه أحب إليَّ من دينار أنفقه في سبيل اللّه عز وجل[٢] .

الكرم صفة حميدة يبرز خلالها كثير من الصفات مثل النخوة ومساعدة المحتاج وعدم الكبر والتعالي على الناس والإحساس بمشاكل غيرنا .

وهذه كلها صفات دعا إليها الإسلام وحث أتباعه على الالتزام بها لما لها من تأثير في نفوس الناس ، ولا يمكن إكسابها للطفل بمجرد محاضرة أو جلسة توجيهية إن لم يكن هناك تطبيق عملي يراه الطفل من والده ومعلمه وينشأ عليه منذ صغره .

د ـ الحلم (العتبة الفارقة) :

عن ابن بريدة قال : شتم رجل ابن عباس فقال ابن عباس : إنك لتشتمني وفيَّ ثلاث خصال : « إني لآتي على الآية من كتاب اللّه عز وجل ، فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم ، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به ولعلي لا أقاضي إليه أبداً ، وإني لأسمع أن الغيث قد أصاب بلداً من بلدان المسلمين فأفرح به ومالي به من سائمة»[٣] .

---

(١) فضائل الصحابة ٩٦٣ ، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٢ .

(٢) صفة الصفوة ، ١/ ٣٨٤ .

(٣) صفة الصفوة ، ص ٣٨٢ ، الحلية ١ / ٣٢٢ .

ولقد شهد أصحاب ابن عباس بحلمه فعندما بلغ جابر بن عبدالله وفاة ابن عباس صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال : مات أعلم الناس وأحلم الناس ، ولقد أصيبت هذه الأمة مصيبة لا ترتق (١) .

يتميز كثير من الناس بالذكاء والدهاء وبعض المواهب إلا أن سعة الصدر لا يكاد يمتلكها إلا القليل ، ويتبين لنا من الموقف السابق اتساع العتبة الفارقة عند ابن عباس ومدى تحمله ، بل إنه استطاع أن يتغلب على غضبه نتيجة الشتم ويقلب الموقف من موقف عداء إلى موقف نصح وتوجيه وتبيان أن حب الخير للجميع يجب أن يكون شعار كل مسلم .

وكما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

" ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"(٢) .

وجدير بالمربين أن يعتنوا بتعليم من تحت أيديهم هذا الخلق الرفيع ، ويعودوهم على عدم الغضب ، لما له من أثر تربوي ونفسي يعود على النفس بالانشراح وتقبل الرأي المخالف وفتح مجال الحوار والمناقشة .

هـ ـ تقدير العلماء :

عن عمار بن أبي عمار ، أن زيد بن ثابت -رضي الله عنه- ركب يوماً فأخذ ابن عباس رضي الله عنه بركابه ، فقال : تنح يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا ، فقال زيد : أرني يدك فأخرج يده ، فقبلها ، فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا (٣) .

وجاء في حياة الصحابة أن ابن عباس كان جالساً في ظل القصر فأشار بيده

---

(١) صفة الصفوة ، ١/ ٣٨٤ .

(٢) متفق عليه في (السلوك الاجتماعي ، ص ٧٩) .

(٣) حياة الصحابة ٣/ ٣ في (عبدالله بن عباس ، ص ١٨٠) .

إلى قبر زيد بن ثابت وقال : هكذا يذهب العلم هل تدرون ما ذهاب العلم ؟ هو ذهاب العلماء من الأرض (١) .

وفي رواية ان ابن عباس لما دفن زيد بن ثابت حثا عليه التراب ثم قال : هكذا يدفن العلم (٢) .

يتساءل كثير من الناس في العصر الحديث لماذا انحطت الأمة الإسلامية وأصبحت في ذيل الأمم بعد أن كانت تقود الأمم وتسوسها ، إن الأسباب كثيرة وليس هذا موضوع بحثنا ، إلا أننا نقول لعل من الأسباب عدم تقدير المعلمين، فهذا ابن عباس يمسك لزيد بن ثابت راحلته حتى يركب بكل راحة ، وهذا التصرف من طالب العلم إلى معلمه، فاحترام المعلم وتقديره يزرع الثقة المتبادلة، ويجعل المعلم يخلص فيما يقدم ، ويتفانى في عمله لأنه يجد من يُقدِّر له عمله، وهذا وللأسف ما نفتقده في عصرنا الحالي بكل ما فيه من وسائل وأساليب تربوية حديثة .

إنتاجه العلمي :

قال ابن حزم في كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» : جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب بن المأمون أحد أئمة الإسلام فتاوى ابن عباس في عشرين كتاباً (٣) .

توفي ابن عباس وفي مسنده ألف وستمائة وستون حديثاً ، وله من ذلك في الصحيحين خمسة وتسعون ، وتفرَّد البخاري له بمائة وعشرة أحاديث وتفرَّد مسلم بتسعة وأربعين (٤) .

---

(١) عبدالله بن عباس ، ص ١٨١ .
(٢) فضائل الصحابة ، ص ٩٦٠ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٨ .
(٤) عبدالله بن عباس ، ص ١٣٧ .

وقد بلغ ابن عباس من مجد العلم غايته . فقد خرج خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان ذات سنة حاجاً ، وقد كان معه موكب فيه رجال دولته ، وخرج عبدالله بن عباس حاجاً أيضاً ولم يكن له صولة ولا إمارة ، إلا أن موكب عبدالله بن عباس من طلاب العلم كان يفوق موكب الخليفة (١) .

وكما ذكرنا سابقاً كان جامعة ينهل منها طلاب العلم ، فقد ورد في التهذيب أنه قد روى عنه مئتان سوى ثلاثة أنفس (٢) .

وكان تنوع ثقافته ، وشمول معرفته مما يبهر الألباب . . فهو الحبر الحاذق الفطن في كل علم . . في تفسير القرآن وتأويله . . وفي الفقه . . وفي التاريخ . . وفي لغة العرب وآدابهم ، ومن ثم فقد كان مقصد الباحثين عن المعرفة ، يأتيه الناس أفواجاً من أقطار الإسلام ، ليسمعوا منه ، وليتفقهوا عليه (٣) .

عن عبدالله بن عمر بن أبان الجعفي عن أبي صالح ، قال : لقد رأيت من ابن عباس مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخراً ، لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق ، فما كان أحد يقدر على أن يجيء ولا أن يذهب ، قال فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه ، فقال لي : ضع لي وضوءاً ، قال فتوضأ وجلس وقال : اخرج وقل لهم من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه فليدخل . قال : فخرجت ، فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به ، وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر . ثم قال : إخوانكم فخرجوا . ثم قال : اخرج فقل من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل ، قال : فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوه عنه أو أكثر . ثم قال : إخوانكم فخرجوا ، ثم قال : اخرج فقل من أراد أن يسأل عن الحلال

---

(١) الاستيعاب ٣/ ٩٣٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٣ .

(٣) رجال حول الرسول ، ص ٧١٨ .

والحرام والفقه فليدخل . فخرجت فقلت : لهم قال : فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله ، ثم قال : إخوانكم فخرجوا . ثم قال : اخرج فقل من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل قال : فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله . ثم قال : إخوانكم فخرجوا . ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل . قال : فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله . قال أبو صالح : فلو أن قريشاً كلها فخرت بذلك لكان فخراً . فما رأيت مثل هذا لأحد من الناس [١] .

كثيراً ما يستدل بجودة الإنتاج على تفوق صاحبه وبراعته ، وقد حق فعلاً لقريش أن تفخر بابن عباس بل حق للمسلمين أن يفخروا . . . وجدير بكل مرب أن يجعل ابن عباس مثلاً لأبنائه ليقتدوا به ويجعلوا من سيرته وطلبه للعلم نبراساً يهتدون به في زمن نحن أحوج ما نكون إلى القدوة .

كما يجدر بالمربين أن يُنوعوا ثقافات أبنائهم لما لذلك من أهمية في توسيع مدارك الطفل .

وفاتــه :

توفي ابن عباس وعمره إحدى وسبعون سنة ملأ فيها الدنيا علماً وفهماً وحكمة وتقى ، وصلى عليه محمد بن الحنفية والبقية الباقية من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار التابعين .

وفيما كانوا يوارونه ترابه ، سمعوا قارئاً يقرأ :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾

---

(١) الحلية ١/ ٣٢٠ ، رجال حول الرسول ، ص ٧١٨ .

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ (الفجر)[١] .

مات عبدالله بن عباس بالطائف سنة ثمان وستين في أيام ابن الزبير وكان ابن الزبير قد أخرجه من مكة إلى الطائف ، ومات بها وهو ابن سبعين سنة . وقيل إنه ابن إحدى وسبعين سنة ، وقيل : ابن أربع وسبعين سنة، وصلى عليه محمد بن الحنفية ، وكبّر عليه أربعاً ، وقال : اليوم مات رباني هذه الأمة ، وضرب على قبره فسطاطاً[٢]

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٨ .

(٢) الاستيعاب ٣/ ٩٣٤ ، أسد الغابة ٣/ ١٩٥ .